الفصل الأول

فلسفة الطبيعة وتفسير نشأة الوجود في مصر القديمة [1]

(1) بحث نشر بالمجلة العلمية لكلية الآداب – جامعة القاهرة، مجلد (55)، العدد الرابع، أكتوبر 1995م.

obeikandi.com

مقدمة :

كان من الطبيعى أن تكون أول القضايا التى تشغل فكر الإنسان المصرى القديم، قضية تفسير هذا العالم الطبيعى وأصل وجوده، فالإنسان المصرى شأنه فى ذلك شأن كل البشر فى العالم منذ فجر التاريخ، كان مشغولا بقضية الخلق .. كيف جاء هو وهذا العالم إلى الوجود ؟ ومن صنعه وصنع هذا العالم ؟وما هى القوى التى تتحكم فى حركته وفى حركة هذا العالم وكيف يمكنه أن يرضى هذه القوى الطبيعية المختلفة ويتجنب خطرها وشرورها ؟ وكيف يمكنه استجلاب خيرها وينال رضاها ؟!

لقد تطلع المصريون القدماء إلى كل ما أحاط بهم من عناصر الوجود واهتدوا بعد تأمل وتفكير عميق إلى نتائج عديدة أهمها :

أ- أن فى الوجود عناصر كثيرة تتحكم فى حياة الخلق ومصائرهم بطريق مباشر أو غير مباشر.

ب- أن كل عنصر من هذه العناصر تتكفل به قدرة إلهية تستوجب التقديس وتستحق العبادة.

جـ - أن هذه العناصر يترابط بعضها مع البعض، ويمكن أن يردوا جميعا إلى أصل واحد قديم .

وقد تشكل عبر هذه النتائج التى اهتدوا إليها فلسفتهم للطبيعة ونظرتهم التأليهية لعناصر الوجود، فقد تخيلوا منذ فجر تاريخهم وجود أربابا متفرقين يتكفلون فرادى بأمور السماء والأرض والماء والهواء والشمس والقمر والمطر والخصوبة والنماء .. إلخ. وشيئا فشيئا بدأوا يطورون فكرهم تجاه هذه الأرباب فيؤلفوا بينها وينظرون إلى علاقتهم بقضية الخلق نظرة فلسفية تتجاوز الفهم

المادى لعناصر الوجود إلى ما وراء هذا العالم المحسوس، واختلفت رؤاهم الفلسفية لأصل العالم والوجود نتيجة لاختلاف الظروف السياسية والاجتماعية مرة أو نتيجة للتنافس بين مدنهم مرة أخرى ونتيجة لدرجة النضج العقلى التى كانت تحكم هذه الرؤى مرة ثالثة.

وقد تنافس فى التراث الفكرى المصرى القديم أربعة تفسيرات قدمها أهالى أربع مدن كبرى فى مصر القديمة هى على التوالى : مدينة أون أو مدينة الشمس هليوبوليس، ومدينة أونوا أو مدينة الأشمونين الحالية، ومدينة منف، وأخيرا مدينة واست أو مدينة الأقصر الحالية. وسنعرض لهذه التفسيرات المختلفة للوجود نسبة إلى المدن التى ظهرت فيها، فقد ظهر فى كل مدينة من هذه المدن مجموعة من المفكرين أو من الكهنة بحسب التعبير المفضل فى مصر القديمة. وحاولوا تمجيد مدينتهم وتمجيد عقيدتهم الدينية فاجتهدوا فى تقديم مذهبهم الخاص فى تفسير أصل الوجود. ولا ندرى ان كان أحدهم هو الذى ابتدع هذا المذهب أولا ثم تتلمذ عليه الآخرون أم أنهم تشاوروا جماعة واصطلحوا على تقديم مذهبهم ككل إلى العالم. وبعبارة أخرى لا ندرى إن كان من المناسب أن نطلق على أصحاب كل واحد من هذه التفسيرات لقب مدرسة فلسفية تتلمذ فيها اللاحق على السابق، بحيث طوروا مذهبهم على النحو الذى وصل إلينا به. أم أنه من غير المناسب أن ندعوهم مدرسة فلسفية، لأننا لا نعرف بالفعل صاحب هذا التفسير بشكل مستقل عن من آمنوا به ودعوا إليه بعد ذلك !!.

وسواء جاز أن نطلق لفظ مدرسة على أصحاب كل واحد من هذه التفسيرات أم لا يصح لنا ذلك. فإن الحقيقة التى لاشك فيها أن كل واحد من هذه التفسيرات قد انطلق من إحدى مدن مصر القديمة فى ذات الوقت الذى شهدت فيه ازدهارها السياسى والاجتماعى والثقافى. وفى الوقت الذى بلغت فيه قمة مجدها ونفوذها. ومما لا شك فيه أيضا أن هذه التفسيرات كانت نتيجة تأملات فلسفية لأفراد بعينهم طوروا تأملاتهم واحد بعد الآخر حتى اكتملت

نظريتهم قبل إعلانها لعامة الناس فى مدينتهم، وقبل نشرها والدعوة لها فى المدن الأخرى. نحن إذن أمام تفسيرات متباينة يعبر كل واحد منها عن مزاج مجموعة المفكرين الخاصين بهذه المدينة أو تلك، أى أن كل تفسير قد خرج معبرا عن مزاج أصحابه الفكرى. ومن هنا جاز أن نطلق على أصحاب كل واحد من هذه التفسيرات أنهم ينتمون إلى مدرسة فلسفية بعينها يحدها المكان الذى ظهروا فيه والزمان الذى أشاعوا وأعلنوا فيه مذهبهم الفكرى. وإن كنا لا نعرف أحدا من أعلام هذه المدرسة أو أصحاب هذا المذهب، فإن هذا يرجع فى المقام الأول إلى سرية التعاليم التى كانت شائعة فى مصر القديمة والسرية التى كانت تحيط بكل صاحب فكرة أو رأى بحيث لم يكن يجوز أن ينسب أحد لنفسه اختراعا أو نظرية معينة. كما يرجع فى المقام الثانى إلى أن معظم هذه المذاهب قد اكتشفها أصحابها وتناقلوها فيما بينهم شفاهة قبل التوصل إلى اختراع الكتابة وحتى بعد اكتشاف الكتابة تكاسل الخاصة من المفكرين عن تسجيل أفكارهم الفلسفية ومكتشفاتهم العلمية ظنا منهم أن من الأفضل أن يتناقل الناس هذا الفكر شفاهة ويتوارثوه محفوظا جيلا بعد جيل حتى يزدادوا تقديسا له واحتراما لعراقته وقدمه.

أولا — المذهب الشمسى :

ينسب هذا المذهب إلى أهالى مدينة أون أو مدينة هيلوبوليس مدينة الشمس وهى عين شمس الحالية، ويعد أقدم مذهب معروف فى تفسير نشأة الوجود، وربما رجع هذا المذهب إلى ما قبل التاريخ المكتوب للحضارة المصرية القديمة، لكن أقدم تسجيل لنص هذا التفسير شبه المتكامل وجد داخل هرمى مرن رع وبيبى الثانى (نفركارع) من الأسرة السادسة، أى يرجع إلى حوالى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد [2].

وقد ورد فى هذا النص :

obeikandl.com

"يا أتوم – خبرر أنت على القمة على التل (الهيولى) ظهرت كالطائر "بن" الخاص بالحجر "بن" فى منزل "بن"، بهليوبوليس، بصقت ما كان شو، تفتفت ما كانت تفنوه، نشرت أذرعتك حولهم مثل أذرع كا، لأن الكا (الخاصة بك) فيهم ..

يا أيها التاسوع العظيم الكائن فى هليوبوليس، آتوم وشو وتفنوه وجب ونوة وأوزيريس وايزيس وست ونفتيس، الذين ولدهم آتوم باسطين إلى مدى بعيد قلبه يفرح عند إنجابه إياك، فى اسمك الأقواس التسعة، يا ليت ألا يكون بينكم من سيبتعد بنفسه عن آتوم، لأنه يحمى هذا الملك نفر – كا – رع، لأنه يحمى هرم هذا الملك نفر – كا – رع، لأنه يحمى عمله الانشائى هذا من كل الآلهة ومن كل الموتى ولأنه يحمى حتى لا يحدث له أى شىء مكروه عبر طريق الأبدية"[3].

لقد تأمل أصحاب هذا النص فى نشأة الوجود وبدء الخليقة وانتهوا إلى القول بماضى سحيق قديم لم تكن فيه أرض ولا سماء ولا كائنات ولا بشر وإنما عدم مطلق واتفقوا مع القائلين ممن سبقهم بأن ذلك العدم المطلق لم يكن يشغله سوى كيان مائى لا نهائى العظم ذلك الذى أطلقوا عليه "نون" وقد أضافوا أنه فى حقبة بعيدة ظهر فى هذا الكيان المائى العظيم روح الهى أزلى خالق هو "آتوم". وآتوم لفظ مصرى يجمع بين ضدين من المعانى، معنى العدم تكنية عن نشأة صاحبه من العدم، ومعنى الشمول والاكتمال، والاكتمال تكنية عما أرادوا تصوير الآله به من قدرة وجلال [4].

وقد ظهر آتوم أول ما ظهر على قمة تلك الجزيرة المائية الضخمة وكان الرمز الذى يعبر عن التل أو الرابية فى اللغة الهيروغليفية يعنى أيضا "ظهور مجيد" ورسمه مرتفع محدودب تنطلق منه أشعة الشمس صعدا حتى يصور معجزة ظهور الآله الخالق لأول مرة [5].

فقد ظهر الآله آتوم ظهوره الأول العظيم بوحدانيته على تلك الرابية أو على تلك الهيولى التى لا شكل لها، حتى ذرأ أو أوجد من نفسه أول عنصرين من عناصر الوجود أحدهما ذكر تكفل بأمر الفضاء والهواء والنور عرف باسم "شو" والآخر أنثى تكفلت بأمر الرطوبة والندى عرفت باسم "تفنوة" واختلط العنصران أو الروحان

الإلهيان وتفاعلا أو تزاوجا على حد تعبير الإنسان المصرى القديم، فتولد عنهما بقية التاسوع الإلهى العظيم، حيث ظهر بعدهما عنصران جديدان، أحدهما ذكر تكفل بأمر الأرض وسمى "جب" والآخر أنثى تكفلت بأمر السماء وعرفت باسم "نوة".

وقد كانت السماء والأرض فى بداية أمرهما متصلتين جسدا وروحا إلى أن أذن الإله الخالق أن يبزغ من بينهما فجر الحياة فأوحى إلى "شو" أن يفصل بينهما فرفع شو السماء عن الأرض ونهض بها إلى أعلى عليين، ثم ملأ الفراغ بينها وبين الأرض بما كان يحيط به ويصدر عنه من هواء وضياء.

ذلك كان الوضع الأول الذى ظهر عليه الوجود، حيث لم يكن فيه إلا هؤلاء الأرباب الكبار، وكانت هيئة الوجود بهذا الشكل مهيئة لوجود الكائنات الحية والإنسان، فاستكمل الخلق بأن تولد الإلهين السابقين أربعة آخرين، ذكران هما أوزويس الذى تكفل فى الأرض بأمر الفيضان والخصب والنمو وست الذى تكفل بأمر أمطار السماء ورعدها وأعاصيرها. وأنثيان ارتبطت كل واحدة منهما بزوجها هما إيزيس التى ارتبطت بأوزوريس ونفتيس التى ارتبطت بست.

وبهذا اكتمل التاسوع الإلهى العظيم الذى عد أصل الوجود بكل ما فيه من عوالم وكائنات حية وجماد.

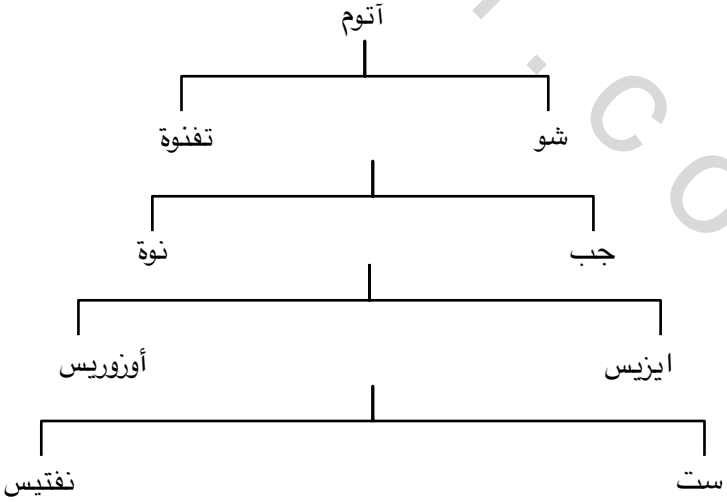

وقد تباينت آراء أصحاب هذا المذهب حول الطريقة التى ذرأ بها آتوم مخلوقاته الأوائل لا سيما شو وتفنوة، فقال بعضهم : إنه خلقهما عن طريق الاستمناء أو بماء اللقاح، كما يخلق بنو البشر عادة. وقال آخرون بأنه خلقهما عن طريق السعال أو البصق، وقد استفاد الأخيران من المدلول اللفظى للاسمين شو وتفنوة من قدرتهم على التأويل العقلى، فقربوا بين كلمة شو وبين الصوت الذى يصدر عن الفم إذا نفخ والأنف إذا عطس، كما قربوا بين كلمة تفنوة وبين الصوت الذى يصدر عن الفم إذا تفل وانتهوا من محاولتهم التأويلية هذه إلى أن ربهم الخالق آتوم نفخ ذات مرة أو عطس عن قصد فصدر عنه شو روح الهواء، وتفل مرة أخرى عن قصد فصدرت تفنوة روح الرطوبة والندى[6] !.

ومضى أصحاب هذا التأويل فجعلوا من هذه التصورات المادية حقائق آمنوا بها، ورتبوا عليها تشبيهات شعرية وفلسفية طريفة فقالوا : إن آتوم بعد أن خلق ولده نفخ نفخة من فمه فجرت الرياح من حوله ولفته على نحو ما يلتف المرء بردائه غير أن شو لم يلبث أن شق رداء الهواء وأرسله على ما شاء لنفسه من المسالك والاتجاهات، ثم تجلى فأثار الوجود بعد أن كان ظلاما. ولما أطلق أبوه تفنوة من فمه وزودها بمقومات الرطوبة والندى حملها شو فوق ظهره فيما كان يحمله من هواء ورياح، ولما تعاقبت العصور وخلق البشر تيسر لهم أن يتطلعوا إلى آيات ربهم شو فى أكثر من مظهر من مظاهر الوجود. وقد أصبح لشو الإله أتباعه الخواص، الذين نادوا بأنه الجوهر الفعال فى الحياة، وأنه المهيمن على ملكوت الهواء ورووا عنه وصفه لنفسه بعبارات قال فيها :

"تقتات الجوارح بصغار الطيور، وتحيا الذئاب على السلب والافتراس، ويقتات الناس بالحبوب، وتقتات التماسيح بالأسماك، والأسماك بما تجده فى مجارى الماء، وكل ذلك يجرى وفقا لمشيئة آتوم، غير أنى أنا من يكفل لهؤلاء جميعا البقاء والاستمرار على الحياة.. أنا الحياة، أوجد فى مناخرهم، أدفع أنفاسى فى حناجرهم.. أنا الحياة التى تعمر تحت السماء".

ذلك كان أحد التفريعات التى تفرعت عن المذهب الشمسى أو قل أحد التفسيرات، التى ركزت على دور الآله شو فى عملية الخلق وتوفير أسباب الحياة لكل كائن حى. ولما ذاع المذهب، وانتشر فى أرجاء مصر القديمة نتيجة بساطة التصورات التى أخرجه فيها أصحابه ومدى اقترابها من كل محسوس ملموس من مظاهر البيئة. فضلا عن أن مدينة أون ازدهر شأنها وعلا نجمها السياسى مما مكن لأهلها أن ينشروا مذهبهم ويبشروا به بكل الوسائل المتاحة.

أقول لما حدث ذلك الذيوع والانتشار كثرت التفسيرات والتفريعات التى تفرعت عن المذهب الرئيسى، وكان أبرز التطورات التى لحقت به، ذلك التفسير الذى ربط أصحابه بين الاله آتوم وبين "رع" الذى كان الها يعبد ويدين به الكثيرون، مما اضطر معه أهالى مدينة أون أن يجددوا فى عقيدتهم الدينية والفلسفية وأن يقرنوا رع بآتوم.

وقد حدث هذا التجديد فى عصر الدولة الوسطى أى حوالى عام 2000 قبل الميلاد على وجه التقريب. وقد عبر نص من الفصل السابع عشر من كتاب "الموتى" كتب فيما بين الأسرة الثامنة عشرة إلى الأسرة الحادية والعشرين عن هذا التطور حيث جاء فيه :

"إنى الاله آتوم فى شروقه (الواحد الوحيد).. أتيت إلى الوجود فى "نون".. انى "رع" الذى نهض فى البدء وحكم ما قد صنع.. إنى الاله العظيم الذى أولد نفسه نظير "نون" الذى صاغ أسماء الآلهة؛ ليوجدوا كآلهة. من يكون هذا إذن؟! إنه "رع" خالق أسماء أعضائه الذين آتوا فى صورة الآلهة فى موكب "رع".. إنى أنا هو فى الصدارة بين الآلهة. من يكون هذا إذن ؟ إنه "آتوم" فى قرصه، أو "كما يقول آخرون : " إنه "رع"[8].

لقد ارتبط الإله آتوم برع فى هذا النص وأمثاله ارتباطا لا ينفصم سواء من جانب أنصار آتوم من أصحاب التفسيرات الأولى للوجود عبر آتوم وحده، أو من جانب أنصار رع الذين حاولوا قدر استطاعتهم أن يتلمسوا الأسباب التى تربط

بين الههم وبين آتوم فبدا رع وكأنه ليس إلها جديدا يضاف إلى آتوم، بل هو آتوم نفسه، ذلك الخالق القديم الذى شاءت إرادته أن يتجلى على الناس فى هيئة رع إله الشمس وأن ينير العالمين من أفقه العظيم"[9]. لقد حدث تزاوج بين الاسمين فى هذا التطور.

وهكذا استمرت التأويلات المختلفة للمذهب الشمسى تتوالى واحدا بعد الآخر تبعا لتطور الظروف السياسية والدينية، التى مرت على مدينة أون موطن المذهب الأصلى. وقد اتخذت هذه التأويلات والتفسيرات صورا متعددة منها الفلسفى العادى، ومنها الشعرى الأسطورى. وفى كل هذه الصور نلمح اجتهادات العقل المصرى القديم فى تفسير أصل الوجود وكيفية نشأة هذا العالم الطبيعى. ولم تتوقف هذه الاجتهادات عند حد تطوير هذا المذهب بل بلغت درجة كبيرة من النضج العقلى حينما بدأ أهالى المدن الأخرى يحاولون نقد هذا المذهب كلية؛ ليقدموا تصورات جديدة حول نفس الموضوع، وهذا ما سنجده بداية لدى أهالى مدينة الأشمونين ومدينة منف.

ثانيا – المذهب الهيرموبوليسى أو الأشمونى :

وهو نسبة إلى مدينة الأشمونين الحالية فى مصر الوسطى، وكانت تعرف فى الزمن القديم بأونو أو هير موبوليس. وقد تحولت هذه الأسماء القديمة إلى الأشمونين بدءا من اعتناق أهلها لمذهبهم الجديد فى تفسير أصل الوجود، الذى تعصبوا فيه لعناصر الوجود الثمانية وأطلقوا عليها "الثامون" وأخذوا عن ذلك اسم مدينتهم الجديدة، حيث كان عدد الثمانية ينطق فى اللغة المصرية القديمة "خمون" وأصبح فى اللغة القبطية "شمون"، ثم ثنى فى اللغة العربية فأصبح شمونين وظل يطلق على الجانبين الواقعين على بحر يوسف من مدينة الأشمونين[10].

أما بداية هذا التفسير الجديد لأصل الوجود والعالم الطبيعى فيرجع إلى ذلك الجدل الذى كثر حول المذهب الشمسى فى المدن المصرية المختلفة، وإلى

محاولة حكماء مدينة "أونو" أو "هرموبوليس" أن يناهضوا هذا المذهب، وربما يكون وراء ذلك أسباب سياسية تمثلت فى نوع من الانشقاق السياسى، الذى عز معه على حكماء المدينة أن يظلوا أتباعا لمذهب منافسيهم، ومن ثم فقد أعلنوها حربا فى السياسة والدين والفكر فى آن واحد.

وقد حاول هؤلاء الحكماء فى البداية أن يشككوا فى بعض عناصر المذهب الشمسى متسائلين فيما بينهم، إذا كان رع آتوم قد خرج أصلا من نون، كما قال أتباعه، أفلا يعتبر بذلك ولدٌ لنون ؟! وإذا كان صحيحا، ألم يكن من المفروض أن يتوفر لنون طرفان للإنجاب ؟! وما الذى كان يحيط بنون قبل أن ينجب ولده؟ وهل كانت له رغبة حقيقية فى ذلك؟!(11).

وبعد هذا التشكيك وتلك التساؤلات، كان على مفكرى أونو أن يقدموا تصورهم الخاص للوجود وكيفية نشأة العالم، فقالوا : بأن الوجود بصورته الحالية تقدمته أربعة عناصر هى : ماء كثيف، وظلام محيط، وقدرة منطلقة دافعة، وعنصر لطيف لا يرى. وقدروا أن كلا من هذه العناصر الأربعة تكفل به توءمان يتفقان فى الطابع ويختلفان فى الجنس، أحدهما مذكر، وهو الأصل، والآخر مؤنث، وهو الفرع. وأنه توفر لكل من التوائم روح ربانية منفصلة، وذلك مما جعل منها ثمانية.

هذه هى عناصر الوجود الأساسية عند الاشمونيين وهذا هو أصل "الثامون" الذى آمنوا به. ولكن السؤال الهام هنا هو : كيف ردوا العالم إلى هذه العناصر ؟! أو بمعنى آخر، هل فسروا نشأة الوجود والكائنات من هذا "الثامون" ؟!

لقد أفاض التوءم الأول أو الروح الأول فى البداية محيطا مائيا كثيفا استقر فيه واتخذه مظهرا لوجوده وتسمى معه باسم "نون" واستقرت معه أنثى توائمه اشتقوا اسمها من اسمه فدعوها "تاونت".

ثم أحاط الروح الثالث نفسه بظلام كثيف اتخذه مظهرا لوجوده واستقر

فيه وتسمى معه باسم "كوك"، وبنفس الطريقة استقرت معه إنثى تماثله اشتق اسمها من اسمه فسميت "كاوكت".

أما الروح الخامس فقد تمثل فى تلك القدرة المنطلقة الدافعة التى اشتق أصحاب المذهب اسمها من لفظ يدل على الحركة الماثلة لاندفاع الأمواج أو انسياب المياه. فسموها "حوح" ثم افترضوا وجود الأنثى التى تقاربه واشتقوا اسمها من اسمه فسميت "حاوحت" أما العنصر أو الروح السابع، فهو ذلك العنصر اللطيف، الذى لا يرى أى "الهواء". وقد سموه بأسماء مختلفة منها "تنمو" أو "نياو" وأحيانا "جرح" أو "آمون". وافترضوا له أنثى تماثله وجعلوا اسمها مشتقا من كل المسميات السابقة وأشهرها اسم "أماونت".

وقد تصوروا بعد ذلك أنه فى فترة ما تجمعت هذه العناصر أو الأرواح الثمانية بما فيها من ذكر وأنثى، وشاءت أن تغير ما هى فيه من كيان قديم بكيان آخر جديد فتعاونت فيما بينها على خلق دحية عظيمة ووضعها فوق ربوة عالية فى مدينة أونو، ولما انشقت الدحية خرج منها كائن جديد، لم يكن فى حقيقة أمره إلا الاله "رع آتوم" إله النور أو إله الشمس، ذلك الإله الذى ظن أصحاب المذهب الشمسى أنه وجد من لا شىء. ومنذ ظهور الإله رع آتوم أصبح العالم مهيئا لظهور الكائنات ووجود البشر[12].

وهكذا نلاحظ أن الاختلاف بين المذهب الشمسى والمذهب الأشمونى يتمثل فى أمرين أساسيين : أولهما هو الاختلاف حول أصل الاله آتوم رع فبينما يؤمن أنصار المذهب الأول بأنه قد أوجد نفسه من عدم، يؤمن أنصار المذهب الثانى بأنه قد جاء بعد "الثامون". وعن طريق تعاون تلك العناصر أو الأرواح الثمانية فى خلق الدحية التى انشقت فخرج منها الإله.

وثانيها : يتمثل فى الاختلاف حول العناصر الأساسية للوجود، فبينما جاء التصور الشمسى واضحاً فى تأليه العناصر المختلفة للوجود وبيان كيف أتى كل زوج منها عن الزوج السابق وأن الجميع قد أتوا بفضل الاله آتوم باعتباره

الاله الخالق، نجد أن التصور الأشمونى جاء غامضا فيما يتعلق بتسمية هذه العناصر الأربعة الأساسية وبكيفية التمييز فيما بين ذكر وأنثى لدرجة أن يتولد عنها عبر انقسامها إلى ذكر وأنثى ذلك "الثامون" الذى عدوه أصل الاله.

ولعل ذلك التمايز بين وضوح المذهب الشمسى والغموض الفلسفى الذى تميز به المذهب الهرموبوليسى هو ما ساعد على ذيوع الأول وانتشاره فى الأوساط الشعبية، بينما اقتصر الاعجاب بالمذهب الثانى على أوساط الخاصة والمثقفين وربما يرجع ذلك إلى ما تضمنه التفسير الهرموبوليسى من عناصر فلسفية هامة[13] ستكون حافزا لتفسيرات أخرى ورؤى جديدة أشد نزوعا نحو التجريد.

والطريف أن أصحاب التفسير الهرموبوليسى ربما أحسوا بهذا الغموض الذى امتاز به مذهبهم واستغلاقه على الفهم، فأرادوا توضيحه بصورة مرئية رمزية يفهمها العامة، فرمزوا لذكور الثامون برءوس الضفادع ورمزوا لإناثها برءوس الحيات، وجاءت نقوشهم معبرة عن ذلك الثامون فى أجساد بشرية تحمل ذكورها رءوس الضفادع وتحمل إناثها رءوس الحيات.

ورغم أنهم لم يتركوا أى نص مكتوب يوضح أسباب اتجاههم إلى هذا التصوير الرمزى على هذا النحو بالذات، فإن الأمر يمكن أن يفسر على أساس أنهم تصوروا أن البداية كانت فى ظهور العناصر أو الأرواح المذكورة، ثم تلاها العناصر المؤنثة، وربما تصوروا ملاءمة رمز الضفادع للمرحلة الأولى، حيث أنها تحيا فى الماء واليابس وتسعى فى الظلام دائما وتتمثل فيها قوة الاندفاع وتبدو كما لو كانت تختزن الهواء فى جوفها وربما افترضوا فى الضفادع أيضا من مظهرها الأغبر وجلدها المغضن ما يوحى بقدم جنسها. فضلا عن أن الكثرة الهائلة التى تتوالد بها على شواطئ الأنهار ترمز إلى الكثرة الهائلة التى تعاقبت بها المخلوقات الأخرى الكبيرة، وتم بها تعمير الكون، وهذا ما يبدو من اتخاذ المصرى القديم لرمز يرقة الضفدع كصورة تعبر فى كتاباته عن المائة ألف[14].

ثالثا – المذهب المنفى :

ينسب هذا المذهب إلى مدينة منف التى أسسها الملك مينا مؤسس الأسرة الأولى فى تاريخ مصر القديمة، لتكون عاصمة لمصر الموحدة ومقرا لملكه. وقد ازدهرت منف فى ذلك الوقت لمكانتها السياسية، وقد واكب مفكرو المدينة هذا الازدهار لمدينتهم فحاولوا، إثبات تفوقهم على ما عداها من المدن بقولهم : إن معبد الههـا الاله "بتاح" كان الميزان الذى وزنت فيه مصر العليا والسفلى"[15]. ولعل ذلك الاعتقاد يرجع إلى المكان الوسط الذى احتلته مدينة منف منذ أسست فى حوالى القرن الثانى والثلاثين قبل الميلاد كواسطة عقد لكل من أقاليم الدلتا وأقاليم الصعيد أى فيما بين مصر العليا ومصر السفلى.

وبالطبع فقد نشط أهل الفكر فى منف حتى يقدموا مذهبا فكريا جديدا بحيث ينطوى بداخله تلك التفسيرات السابقة، وبحيث يتجاوزها جميعا بسمو ما فيه من تصورات لمسألة الخلق وكيفية نشأة الوجود.

ولا شك أن نقطة البداية فى هذا المذهب ستنطلق من أمرين :

أولهما : الإعلاء من شأن مدينتهم وأربابها المحليين خاصة أقدمها جميعا الاله "بتاح" الذى كان ينظر إليه على أنه – حسب معنى اللفظ – الفتاح أو البناء الخلاق، رب الأرض العالية.

وثانيهما : احتواء المذهبين السابقين بنقدهما تارة، وبتأويلهما ليصبحا جزءا من مذهبهم الخاص تارة أخرى.

ومن هنا بدأت تساؤلاتهم وتأملاتهم، وربما كان أول هذه التساؤلات، إذا كان أصحاب المذهبين السابقين قد شهدوا ظهور الههم الخالق بظهور رابية أو ربوة عالية طافية فى وسط مائى وسواء قد ظهر الاله مباشرة فى هذا الوسط، كما يرى أصحاب المذهب الشمسى أو ظهر بعد أن خلقت عناصر الوجود أو أرواحه الثمانية تلك الدحية التى خرج منها الاله لأول مرة، فإن الناس قد صدقوا

هذه الآراء واعتنقوها.

وإذا كان ذلك كذلك، فلماذا لا تكون تلك الربوة العالية الطافية الحقيقية هى مدينة منف ذاتها أو على الأقل جزءا معينا منها، ولاسيما أنها كانت بالفعل أرضا طافية فى بداية أمرها قبل أن يحول عنها الفرعون فرع النيل ويجنبها طغيان النيل عليها، ذلك الطغيان الفيضانى الذى كان يحولها فى الزمن القديم إلى ما يشبه المستنقع الكبير ويجعل من أرضها أشبه بالجزيرة الطافية.

وإذا كانت منف هى ذاتها تلك الربوة العالية الطافية فى بداية أمر الخليقة، فلماذا لا يكون ما حدث فيها من عمران متتابع ومنتظم منذ إنشائها على يد الملك مينا قد حدث عن تدبير إلهى حكيم، وربما يكون هذا التدبير مماثلا لما حدث فيها عند نشأة الوجود لأول مرة ؟!.

ولقد تساءل حكماء منف كذلك عن "آتوم" وقدرته الخلاقة. فقد قال أصحاب المذهب الشمسى : بأنه قد خلق من نفسه أرباب الطبيعة أو ما أسموه بالتاسوع العظيم، فكيف تم خلق بقية الأرباب الأخرى، التى عبدها المصريون وهى كثيرة ؟ وكيف ظهر العمران فى الأرض ؟ وكيف تميزت الكائنات المختلفة بعضها عن بعض، أيمكن أن تكون هذه الأشياء جميعا قد حدثت من تلقاء نفسها ؟! أما كان للاله الخالق تأثير فى إيجادها وفى تنظيم العالم المعمور وإصدار التشريعات والنواميس التى يعمل الجميع ويعيشون وفقا لها ؟!.

لقد تساءل حكماء منف أخيرا عن تلك الإرادة المدبرة التى فكرت فى خلق العالم وفى تنظيم أموره. أن تلك الإرادة المدبرة المفكرة فيما وراء الوجود لابد أنها قد فكرت ودبرت قبل أن يصدر أمر الخلق ذاته، لابد أن يكون التفكير والتدبير قد سبقا الخلق والتعمير ؟.

وهكذا وصل فلاسفة منف إلى افتراض وجود الاله الخالق وإلى افتراض أنه قد فكر ودبر قبل أن يخلق ويعمر وأنه قد شمل الكون والكائنات برعايته ورسم لكل

ما فى العالم قدره وأفعاله. وقد عبروا عن ذلك فى وثيقة صيغت فى حوالى عام 700 ق. م، وإن كانت كل الدلائل الأثرية والجغرافية واللغوية تشير إلى أن هذه الصياغة قد اشتقت من نص يرجع تاريخه إلى أكثر من ألفين سنة قبل هذا التاريخ[16].

يبدأ النص المنفى بابتهال موجه إلى الاله بتاح، أعلن المنفيون فى إطاره أن الأرباب الذين عرفهم البشر قبله لم يكونوا غير "صور من بتاح" وأنه هو الرب الخلاق القديم، وأنه منذ استوى على عرشه العظيم لأول مرة كان روحا للكيان المائى بكل ما احتواه من ذكر وأنثى، كما كان روحا لليابس القديمة أو للأرض الطافية على وجه المياه.

وبناء على ما سبق بدأ المنفيون يصفون الاله بتاح بصفات جديدة تميزه عن كل الأرباب بصورة غير مسبوقة [17]، فاعتبروه "بمثابة القلب واللسان لهم جميعا" [18] وليس القلب، أو اللسان بالشىء الهين فما من شك أن "للقلب واللسان سيطرة على كل جسد"[19] والدليل "قائم فى كل صدر وكل فم للأرباب، والبشر والأنعام والزواحف على السواء"[20] وإن طلبنا منهم الدليل الأقوى على صحة ما يقولونه لقالوا : "إن ما تشهده العينان وتتسمعه الأذنان، وتتشممه الأنف إنما يرقى جميعه إلى القلب" أما عن الفم فهو الناطق بكل شىء[21].

ولا ينبغى أن نقلل من شأن هذه الصفات، فهما – أى وصف الاله بأنه بمثابة القلب واللسان لكل الآلهة – ليسا مجرد استعارتين تقليديتين : فالمصريون القدامى كانوا يقصدون بلفظة "القلب" شيئا أكثر شبها بالعقل أو الإدراك فى حين يشيرون إلى اللسان بالحديث أو التعبير. وبالتالى فليس معنى أن الاله بتاح هو قلب ولسان الالهة أنه "مجرد مترجم للآلهة فى جلسة عمومية، بل هو "العقل المقدس ذاته المشترك فى عملية الخلق بتقديم فكرة ثابتة عن أفكاره على حد تعبير توملين[22]. إن الإله إذن هو الذى يفكر فى الخلق وينطق بما فكر فيكون الخلق ذاته وهذا ما تشير إليه الفقرات التالية من النص المنفى، حيث يقول فلاسفة منف :

"وهكذا إنما هو فى الأصل قلب (أو عقل) أرسل الأرباب جميعا، وإنما هو كذلك لسان أزلى جرى على ترديد ما تدبره الفؤاد "فعن طريق الفكر إذن والنطق من بعده بدأ الخلق" فخلق الأرباب جيمعا. وآتوم وتاسوعه أيضا "ثم" حدث أن أفضت كل كلمة ربانية تدبرها العقل (الالهى) وأمر بها اللسان إلى أن تتابع خلق الأنفس وتقرر شأن الأطياف الحوارس وتوفرت الأقوات جميعا، الخيرات جميعا و"تقرر ما يستحب من أمور الناس وتقرر ما يكره، وحق أن توهب الحياة لمن يعمل بالسلم، والفناء لمن يتحمل بالاثم".. "وفق الناموس الذى تدبره العقل وخرج باللسان فقدر لكل شىء قدره، أنجزت الأمور جيمعها، وأبدعت الفنون جميعها، وتوفر نشاط اليدين وسعى القدمين وخلجات الأعضاء كلها"[23].

وإذا أمعنا النظر فى هذا النص الهام والخطير للاحظنا أنه اتسع ليشمل جوانب أخرى غير مجرد النظر فى مشكلة أصل الوجود وتفسير نشأة العالم الطبيعى، فضلا عن أنه فيما يتعلق بهذه المشكلة قد نقلنا نقلة نوعية كبرى نحو تجريد أمر الخلق تجريدا يكاد يكون إرهاصا ببعض ما نزلت به الكتب السماوية؛ ففى العهد الجديد نجد "فى البدء كان الكلمة وكان الكلمة مع اللّه، والكلمة هى اللّه"، وفى ا لقرآن الكريم نجد قوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

وبالطبع ففى هذا النص ما يؤكد اكتشاف فلاسفة منف لأهمية "الكلمة" خاصة "كلمة الاله" أو الكلمة الالهية التى هى أصل الوجود وسر بدء الخليقة، وها هنا نجد أصل الكلمة اليونانية Logos التى اكتسبت معنى مقدسا فى الانجيل ومعنى يمتزج فيه العقلى بالأسطورى لدى فلاسفة اليونان منذ هيراقليطس حتى أفلاطون ويمتزج فيه العقل بالدين لدى فلاسفة الاسكندرية من فيلون الذى عاش فيما بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول الميلادى حتى أوريجين الذى عاش فيما بين أواخر القرن الأول الميلادى حتى منتصف القرن الثانى[24]. ففلاسفة منف كانوا – على حد تعبير توملين – أول من أحكم وضع مفهوم الكلمة نظرا

لكونهم كانوا كهنة ميتافيزيقين، فما لم نجده غير معقول عند أفلاطون وعند فيلون السكندرى وفى انجيل يوحنا قل أن يثير دهشتنا بالنسبة لهؤلاء المصريين الأوائل فهم – والكلام لا يزال لتوملين – لم يقدموا فقط الفكرة ذاتها بل قدموها بصورة جديرة بالاعتبار[25].

إن أصل الوجود فى نظر فلاسفة منف هو الاله الخالق بتاح أما كيف كان ذلك، فهو الأمر اللافت للنظر والاعتبار فى رؤيتهم فالاله فكر بعقله (أو قلبه) ومن ثم أدرك الخلائق وطبيعة كل مخلوق، ثم نطق الكلمة بلسانه فكان تمام أمر الخلق، ولا شك أن الأرباب كانوا أول ما صدر عن الاله بتاح حسبما يشير النص، فهو قد خلق أول ما خلق الأرباب جميعا بما فيهم الاله آتوم وتاسوعه، ثم تتابع بعد ذلك أمر الخلق فخلقت الأنفس أو الأرواح الحارسة، كما خلقت كل الأشياء والكائنات التى تتيح الحياة على هذه الأرض وبها عمرت الأرض واستمرت الحياة.

ولعله قد اتضح لنا من ذلك الاختلاف الكبير بين التفسير المنفى لأصل الوجود وكيفية الخلق وبين التفسيرات السابقة؛ فعلى الرغم من أن فلاسفة منف قد استلهموا فى تفسيرهم تلك التفسيرات السابقة محاولين تضمينها تفسيرهم الخاص إلا أنهم وهم يفعلون ذلك قدموا لنا هذه الرؤية الجديدة لعملية الخلق. تلك الرؤية المجردة التى استوعبت الرؤى المادية السابقة وأضافت عليها هذا البعد الفلسفى المدهش وغير المسبوق.

أما فيما يتعلق بالجوانب التى تضمنها النص المنفى غير مسألة تفسير الوجود وخلق العالم، فأهمها ذلك الجانب الأخلاقى الذى بدا واضحا فى السطور الأخيرة من النص السابق، فالرب الخالق هو ذلك الذى قرر المستحب من أمور الناس وحدد المكروه منها، أى أن الإله هو الذى حدد منذ البداية الخير والشر وبناء على هذا التحديد تتقرر مصائر البشر فمن يفعل الخير أو "من يعمل بالسلم" حسب النص توهب له الحياة، أما من يعمل الشرور والآثام فلا يستحق إلا الموت والفناء".

ورغم أن هذا الجزء من النص قد اختلف حوله المفسرون من أمثال ارمان

وزيته وجاردنر وبرستيد[26]، فإن الجميع متفقون على أنه يحمل جذور أول مذهب أخلاقى إنسانى معروف، وإن كل إنسان يعامل بحسب سلوكه فإن فعل ما هو محبوب أو ممدوح فقد وهب الحياة المسالمة الخيرة، وإن فعل ما هو مكروه فقد أصبح مجرما يستحق العقاب، بل يستحق الموت والفناء، وفى هذين التعبيرين "ما هو محبوب أو ممدوح" و"ما هو مذموم أو مكروه" نجد أقدم برهان عرف على مقدرة الإنسان على التمييز بين الخلق الحسن والخلق السيء القبيح لأنهما ذكرا هنا لأول مرة فى تاريخ البشر على حد تعبير برستيد[27].

والذى ينبغى أن نلاحظه هنا أنه ظل استعمال هذين التعبيرين قرونا عديدة ولم يحل محلها كلمتا "الحق" و"الباطل" إلا بعد ذلك بزمن طويل فى رأى برستيد، وإن كان الإنسان المصرى قد عرفهما أيضا فى وقت مبكر فى فقرة وردت بكتاب الموتى. وقد استعان زيته بهذه الفقرة فى تفسير هذا الاتجاه الأخلاقى فى النص المنفى، حيث رأى أنه ربما يكون بعض الألفاظ قد سقطت فى هذا النص وبين ما هو محبوب أو ممدوح، والربط بين ما هو باطل وبين ما هو مكروه أو مذموم[28] فيكون المبدأ الأخلاقى أن الحق دائما فى جانب من يفعل ما هو محبوب بينما يكون الباطل فى جانب من يفعل ما هو مذموم أو مكروه.

وبالطبع فإنه من الأهمية بمكان هنا أن ندرك أننا لا نزال حتى فى إطار الفكر الفلسفى المعاصر نتناقش حول معنى الخير ومعنى الشر وكيفية التمييز بين الحق والباطل فى السلوك، وإن عبقرية المفكر المصرى القديم قد قادته فى تأملاته الفلسفية تلك إلى وضع أول معيار معروف لهذا التمييز، فالحكم على خيرية السلوك فى هذا الإطار يكون من خلال رضا الآخرين عنه وتقديرهم له، بينما تكون كراهية الناس واستنكارهم لسلوك معين خير دليل على أنه سلوك باطل ينبغى اجتنابه.

وفى هذا الإطار أيضا أصبح الرجل الفاضل فى نظر فلاسفة منف هو "المحب للسلام" أو حسب النص السابق "من يعمل بالسلام" وهذا تعبير أخلاقى

رفيع المستوى يدل على وعى هؤلاء الفلاسفة بأن الحكم على أخلاقية إنسان ما إنما يكون من خلال علاقاته الاجتماعية بالآخرين ومدى التزامه بالتقاليد المرعية ومراعاة الحقوق الواجبة.

وعلى العكس فإن الإنسان الذى لم يرع هذه التقاليد، ولم يحافظ على حقوق الآخرين، فهو إنسان مجرم أجرم فى حق الآخرين فأصبح حاملا للجريمة، أو حسب النص السابق "حاملا الأثم"، ولا شك أن أولهما هو الجدير وحده بالحياة وثانيهما هو الأحق بالعقاب والموت.

وفى اعتقادى أن هذا الجزء من النص يمكن أن يفسر فى إطار الاعتقاد المصرى القديم بالخلود وبأن ثمة حياة أخرى تعقب حياة الإنسان فى هذا العالم الدنيوى، إذ لا يكتمل فهمنا لعبارة "وحق أن توهب الحياة لمن يعمل بالسلم، والفناء لمن يتحمل بالأثم"، إلا إذا ربطنا السلوك الأخلاقى فى هذه الحياة الدنيا بالمصير الذى ستلقاه النفس فى الحياة الأخرى، فمن فعل الخير وعمل بالسلم فى حياته الدنيا حق أن تهبه الآلهة حياة خالدة أبدية، ومن عمل الشر وتحمل بالآثام استحق الموت والفناء الأبدى.

لقد ضرب فلاسفة منف فى هذا المقطع من النص عصفورين بحجر واحد؛ فهم قد استفادوا من الإطار المرجعى للأخلاق ذات الطابع الاجتماعى فى مصر القديمة أى استفادوا من خبرة الأجيال السابقة ومن نظرتهم الاجتماعية للسلوك الإنسانى التى تبلورت فى المصطلح المصرى القديم "ماعت" أى العدالة والنظام الذى ينبغى أن يؤمن به الفرد ويسود المجتمع.

كما استفادوا أيضا من الإطار المرجعى للديانة المصرية التى غلب عليها دائما الإيمان بالخلود منذ فجر التاريخ المصرى القديم، لقد بلوروا رؤيتهم الفلسفية مكثفين إياها فى تلك العبارة التى تربط الفعل الفردى بالمردود الاجتماعى، كما تعلق مصير الفرد الأخروى على ما يفعله فى حياته الدنيا، كما تربط هذا وذاك بمشيئة الاله الخالق الذى "قدر لكل شىء قدره"، والذى بفضله

obeikandi.com

"أنجزت الأمور جميعها وأبدعت الفنون جميعها وتوفر نشاط اليدين وسعى القدمين وخلجات الأعضاء جميعها".

رابعا – المذهب الواستى :

وهو نسبة إلى مدينة "واست" القديمة، التى هى الأقصر حاليا والتى عرفت فى الزمن القديم باسم واست أى مدينة الصولجان، وقد عرفها اليونان باسم "طيبة" بينما أطلق عليها العرب اسمها الحالى مدينة الأقصر.

لقد أسلمت المذاهب السابقة نفسها إلى مفكرى هذه المدينة التى تهيأ لها حظا واسعا من السيادة خلال فترات التاريخ المصرى القديم خاصة فى عصر الدولة الوسطى والدولة الحديثة، وقد تطور بها الحال إلى أن أصبحت كبرى عواصم الشرق القديم بدون منازع بعد أن أصبحت عاصمة الإمبراطورية المصرية الكبرى خلال أزهى فترات الدولة الحديثة.

وقد نشط فلاسفتها ليمزجوا بين التفسيرات القديمة لأصل الوجود وكيفية الخلق بطريقة جديدة أعطت السيادة لاله مدينتهم الأعظم الاله آمون، وجعلت من مدينتهم أم المدائن وسيدتها !.

وتصور لنا النصوص القديمة كيف حاول أهالى "واست" تمجيد مدينتهم وجعلها أصل المدن ومركز الخلق والمدنية، لقد قالوا فى بعض ما كتبوه عنها :

"واست هى الأحق من كل مدينة .. توفر فيها المياه واليابس منذ الأزل وزادتها الرمال فطوقت مزارعها وارتفعت ببطاحها على ما يشبه النجد.

وبذلك تكونت الأرض وأمكن أن يحدث فيها الخلق.

وبدأ الاتجاه إلى نشأة البلدان بمعناها الصحيح.

وغدا لفظ "المدينة" يطلق من بعد ذلك على أسماء هذه البلدان تحت كفالة "واست" أو تحت كفالة العين المقدسة لاله الشمس بمعنى أصح.

obeikandl.com

وكانت جلالتها أى عين رع قد وفدت (على مدينة واست)، وهى كاملة متكاملة نيرة رغبة فى أن تحكم أمر العالمين فيها ..

هى مدينة قيل عنها فى الأزل : ما أعزها باسمها "واست"، وقيل : إنها مدينة سوف تخلد، وأنها سوف تنعم باسمها وجات ولاسيما أنه اسم العين اليمنى لاله الشمس بالذات.

هى إذن مدينة لا مثيل لها. وكل المدائن التى تستظل بظلها إنما تريد أن ترفع من شأن نفسها عن طريقها. وهكذا فهى الأحق من غير شك"[29].

على هذا النحو الأسطورى صور فلاسفة واست أنها الأحق أن تكون أقدم المدن وأعظمها، وأنها هى التى كانت أول ما ظهر على التل الأول الذى أطل برأسه من الماء[30] أى أنها أصل الأرض وموطن الخليقة الأول.

وإذا كان ذلك كذلك، فإن الاله آمون سيصبح باعتباره اله هذه المدينة هو الاله الأول والأعظم، وهو خالق الخلق ورب العالمين وهو بداية الوجود. وهذا ما عبر عنه فلاسفة المدينة فى نص هام قالوا فيه :

"وجد آمون منذ البداية دون أن تعرف له نشأة. فلم يوجد قبله إله أو يوجد معه إله يستطيع أن يصف له هيأة. ولم تكن له أم تبتدع له اسما أو ولد ينجبه ويقول . . هاأنذا . .

وحسبه أنه الإله المقدس وأنه وجد من تلقاء نفسه وأن الأرباب جميعا تتابعوا من بعده. .

والحق أنه إله عجيب كثير الأوضاع، افتخر الأرباب جميعهم بأنهم منه ابتغاء أن يستزيدوا من بهائه وربوبيته حتى لقد بلغ من ذلك أن رع ذاته اتحد ببدنه وهو قديم النشأة فى آون.

وقال عنه الناس إنه تانين (رب منف القديم).

وأنه آمون الذى صدر عن نون.

وأنه من هدى الخلائق أجمعين. وأن له صورة أخرى من أعضاء الثامون . .

وأنه هو الذى أنجب من استولدوا الشمس من الأرباب الأولين.

وأنه من استكمل ذاته فى هيئة آتوم. وأنه كان معه بدنا فردا.

وأنه رب العالمين وأنه بداية الوجود"[31].

وأهم ما ينبغى أن نلاحظه من ذلك النص بالإضافة على ما سبق الإشارة إليه، أن الاله آمون رغم أنه الاله الذى خلق نفسه بنفسه وأوجد بقية الآلهة إلا أنه قد اتخذ فى حياته القديمة أكثر من صورة، فبعد أن أوجد نفسه بنفسه واستمر إلها واحدا فردا لمدة قدرها لنفسه وتخير لنفسه مكانا قدسيا استقر فيه مختفيا باسمه وشكله والمقر الذى استقر فيه. وهذا ما عبر عنه أتباعه حينما لقبوه "بآمون رنف" أى خفى الاسم و"كم آتف" أى الذى أتم عهده. وعلى كل حال فلقبه الأشهر آمون يعنى الخفى.

بعد ذلك ارتأى أن يتخذ وضعا جديدا فغادر هذا المقر الخفى ليتخذ مقره الجديد فى مدينة أون وسط ذلك الكيان المائى العظيم نون، ثم اتخذ صوره الاله الخلاق الفتاح تاتنن وهو اسم آخر للاله بتاح إله منف القديم بمعنى رب الأرض العالية الناهضة.

ولم يكتف بذلك، بل اتخذ كيانا جديدا وسط الثامون الالهى المقدس عند أصحاب المذهب الأشمونى، فضلا عن أنه منذ البداية قد اتخذ هيئة رع حينما اتحد الأخير ببدنه فأصبح من ألقابه آمون رع تنويها بألوهيته للشمس وما يصدر عنها من نور وحرارة.

إن هذه الصور المتعددة التى اتخذها الإله آمون لنفسه أو التى أسبغها عليه أتباعه إنما استهدفت – فيما يرى د. عبدالعزيز صالح – التبشير بدعاوى أربعة هى :

1- أن رب الشمس الذى عهد الأرباب الأوائل بخلافتهم إليه لم يكن رع أو رع "آتوم"، كما ادعى فلاسفة أون وإنما كان آمون رع الذى يرتد نسبه أصلا على مدينة واست وحدها.

2- أن ما انتهى إليه أمر آمون رع فى نهاية المطاف أنه قد جمع شتى مظاهر السلطة والقوة والتقديس، التى سبق وأن افترضها أصحاب المذاهب الأخرى فى مدن أون والأشمونين ومنف لأربابهم جميعا.

3- أن آمون رع وإن بدا للناس فى وضعه الاخير خليفة لأرباب الخلق الأوائل ووريثا لعروشهم جميعا؛ إلا أنه فى حقيقة الأمر كان الفيض الأخير للاله الخلاق القديم "كم آتف" بعد أن تلبس أحد الأوضاع التى قدرها لنفسه وبنفسه.

4- وأخيرا لقد أراد فلاسفة واست القدامى أن يؤكدوا للناس أن الروح الالهية التى اعتادوا أن يتعبدوا لها فى معابد واست العديدة لم تكن فى الحقيقة غير روح واحدة وان تعددت أوضاعها فهى قد صدرت جميعها عن واحد وارتدت إلى واحد[32].

والحقيقة أن هذا التفسير الواستى بحكم ما تيسر لأتباعه من سطوة وسلطان وبحكم ما تيسر لمدينة واست القديمة من مكانة مركزية فى التاريخ المصرى القديم خاصة فى العصرين الوسيط والحديث قد ظل المذهب الأشهر والأكثر شيوعا بين المصريين وربما يرجع ذلك بالإضافة إلى ما ذكرناه إلى سببين رئيسيين هما :

أولاً : أنه قد لخص كل المذاهب السابقة واعتبرها نابعة من قلب المذهب الواستى باعتبار أن الاله آمون كان هو الأول الخفى، وكان هو الآخر الظاهر الذى اتحد بإله الشمس وإله الأرضين جميعا.

وثانيا : أنه كان الأقرب إلى تصور المصريين القدماء فى تلك الحقبة

التاريخية التى كان لا يزال الناس فيها لا يتصورون الربوبية إلا على هيئة أرباب متعددة يرأسها جميعا الإله الأعظم.

ذلك كان التصور السائد رغم اختلاف أسماء المدن التى قدم أهلها التفسيرات ورغم اختلاف تسميتهم للإله الأعظم !! أضف إلى ذلك أنه قد توفر للمذهب الأخير استقراراً أكبر وأنصارًا أكثر وكهنة أخلصوا الدعوة والتمسك بالههم وانتشروا فى مختلف أرجاء مصر القديمة ينشرون عقيدتهم ويصورون للناس أن آمون هو الاله الأول والآخر وهو الآله الذى تجلى فيه وتجلت عبره الآلهة الأخرى أيا كان اسمها وأيا كان أصلها !.

وليس أدل على صحة ما أقول أكثر من أن الصورة الاخناتونية التوحيدية التى حدثت فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد لم تدم طويلا فى ظل هذا الإيمان بالتعددية التأليهية وزعيمها آمون؛ فرغم أن أخناتون كان ملكا فيلسوفا دعى بنفسه إلى عبادة إله واحد أحد هو الإله آتون الذى نفى عنه الشرك وخلصه من عقيدة التجسيد المادى إلا أنه لم تمض أكثر من أربعة عشر عاما على وفاته حتى عاد المصريون سيرتهم الأولى أى عادوا إلى الإيمان بآمون وبالتعدد الإقليمى للأرباب المحليين المتفرقين[33].

خاتمة :

إن هذه التفسيرات المصرية القديمة لأصل الوجود وكيفية خلق العالم الطبيعى إنما نبعت من تساؤل فلسفى أصيل عن هذا الأصل الأول للوجود وعن فعل الخلق ذاته !! وهى فى الواقع ليست إلا نماذج لما كان يسود الفكر الشرقى القديم فى شتى البلاد الشرقية القديمة خاصة فى بابل والهند، فلقد كان لليابليين القدماء كما كان للهنود نفس التساؤلات أما الإجابات فقد اختلفت بعض الشيء فى التفاصيل وإن اتفقت فى العموميات[34].

وإذا كان الكثير من هذه التفسيرات القديمة لأصل العالم خاصة فى مصر

وبابل قد دار حول أن الماء هو أصل العالم المادى فإن من الغريب والعجيب أن يظل معظم مؤرخى الفلسفة يعتقدون أن طاليس كان أول من قال بأن الماء هو أصل العالم الطبيعى وأنه هو أول الفلاسفة بحجة أنه كان أول من أثار التساؤل وأجاب عليه على أساس عقلى طبيعى !! وأعتقد أن عليهم جميعا أن يعيدوا النظر فى هذا الأمر فى ضوء حقيقتين هامتين :

أولهما : أن القائلين بأن أصل العالم هو الماء كثيرون عرفنا بعضهم فى التفسيرات المصرية التى عرضنا لها فيما سبق !.

وثانيهما : أن ما قدمه طاليس من أدلة على صحة قوله بأن أصل العالم هو الماء إنما كانت فى الواقع أدلة من صنع خيال أرسطو والافتراضات التى افترضها ونسبها إلى طاليس بينما لم يثبت لطاليس كتابات تؤيد ما ذهب إليه أرسطو أو تنفيه[35].

*** ***

obeikandl.com

هوامش الفصل ومراجعه

1- أنظر : د. عبدالعزيز صالح : فلسفات نشأة الوجود فى مصر القديمة، دراسة نشرت بالعدد 26 من مجلة "المجلة" القاهرة، فبراير 1959م، ص 33.

2- أنظر : نصوص الشرق الأدنى القديمة المتعلقة بالعهد القديم، الجزء الأول، نشرها جيمس بريتشارد، تعريف وتعليق د. عبدالحميد زايد، وراجعها د. محمد جمال الدين مختار، نشرة وزارة الثقافة المصرية، هيئة الآثار، مشروع المائة كتاب (9)، القاهرة 1987م، ص 33.

وقد ظهر النص الهيروغليفى فى كتاب :

K. Sethe : Die Altagyptischen Pyramidentexten, II Leipzig. 1910.

وقد ترجمت مقتطفات من التعبير الكامل عنها فى كتاب :

J. H. Breasted : Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, New York, 1912.

وقد ترجمت نصوص الأهرام فى كتاب :

S.A. B. Mercer : The Pyramid Texts in Translation and Commentary, 4 Vols, New York. 1952.

3- نفس المصدر السابق، ص 34.

وراجع الترجمة الانجليزية فى : S. A. B. Mercer :

Op. Cit., vol. I. P. 253 – 54.

والجدير بالذكر هنا أن إله هليوبوليس يؤلف من وجهين للشمس هما آتوم وخبرر وقد عرفا فى عصر تال بآتوم رع، وقد كان لمقصورة هذا الاله حجر له

obeikandl.com

شهرة مقدسة هو "بن" وكان يشترك مع هذا الحجر فى شهرته طائر كان له فيما يبدو نفس الشهرة، وكان يدعى أيضا "بن" وربما يكون هذا الطائر هو الذى عرف بعد ذلك بالعنقاء وهو طائر خرافى. أما لفظ (كا) فتعنى الروح الحارسة أو القوة الحية لشخصية وغالبا ما كانت تصور بالرسم كالأذرع الحامية، والمعنى المقصود فى النص أن الاله آتوم وضع قوته الحيوية الخاصة فى مخلوقاته الأوائل. أما الإشارة إلى "التاسوع العظيم" فهى تعنى الآلهة التسعة فى أجيالهم الأربعة على النحو التالى :

1- آتوم الخالق. 2- شو إله الهواء وتفنوه آلهة الرطوبة.

3- جب إله الأرض ونوة الهة السماء. 4- الإله أوزيريس والآلهة إيزيس والاله نفتيس.

أما "الأقواس التسعة" فهى إشارة إلى الأعداء التقليديين المحتملين لمصر.

وفى ختام النص مناجاة ومناشدة للآلهة أن تقف مع الاله آتوم فى مناهضته لأعداء مصر والملك نفر – كا – رع على اعتبار أن الاله هو الحامى لمصر والمحافظ على الملك وعلى عمله الانشائى الضخم أى على هذا الهرم الذى بناه الملك.

4- د. عبدالعزيز صالح : نفس المرجع السابق، ص 33.

5- جون ولسون : مصر، دراسة نشرت بكتاب : ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، منشورات دار مكتبة الحياة، بغداد، 1960، ص 67.

6- أنظر : جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة د. إمام عبدالفتاح أمام، سلسلة عالم المعرفة (العدد 173) الكويت، مايو 1993م، ص 46.

وانظر أيضا : جون ولسون، نفس المرجع السابق، ص 69.

وكذلك : د. عبدالعزيز صالح، نفس المرجع السابق، ص 35.

openkanal.com

7- نقلا عن : د. عبدالعزيز صالح، نفس المرجع السابق، ص 35.

8- كتاب الموتى، الفصل (17)، نص (1)، ترجمه عن الهيروغليفية السير والس بدج، ونقله إلى العربية د. فيليب عطية، مكتبة مدبولى بالقاهرة، 1988، ص 41 – 42.

وقارن كذلك بما ورد فى كتاب "نصوص الشرق الأدنى القديمة" الجزء الأول، سبق الإشارة إليه، ص 35 – 36.

9- د. عبدالعزيز صالح، نفسه، ص 36.

10- أنظر : نفس المرجع السابق، ص 37، وهامشها.

11- نفسه، ص 37.

12- أنظر : نفس المرجع السابق، ص 38.

وانظر أيضا : جون أ. ولسن : نفس المرجع السابق، ص 67.

ولاحظ كيف يعقد ولسن هنا مقارنة بين تصور أهالى هرموبوليس للخلق وبين ما يذكره سفر التكوين فى التوراة مبينا مدى التقارب بين النصين.

13- أنظر : د. محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، مطبعة البيت الأخضر، القاهرة، 1938م، ص 47 – 48.

14- أنظر : د. عبدالعزيز صالح : نفس المرجع السابق، ص 39.

15- نقلا عن : الترجمة العربية لنصوص الشرق الأدنى القديم، جـ1، ص 36.

16- وجدت هذه الوثيقة فيما يعرف بحجر شاباكا Shabaka نسبة إلى ذلك الفرعون الأثيوبى الذى حكم مصر خلال القرن الثامن قبل الميلاد. وقد ورد فى النقش أنه نقل من كتابات قديمة خلفها الأجداد، وقد درس هذا النص من تلك الوثيقة العديد من علماء المصريات من أمثال زيته وارمان وبرستيد

obeikandi.com

وتوملين وغيرهم.

راجع :

K. Sethe : Dramatishe Texte Zwi Altagyptische Mysterienspielen, Leibzig – 1928.

A. Erman : Ein Denkmal Mentphitescher Theologie in Sitz der Konigtish Preussisthen AK. Der Wissenschaft, XLIII, 1911.

وأنظر : برستيد : فجر الضمير، ترجمة د. سليم حسن، مكتبة مصر بالقاهرة، ص 51.

وأنظر أيضا : ولسن : نفس المرجع السابق، ص 71 – 75.

وكذلك : توملين (أ. و. ف) : فلاسفة الشرق : ترجمة عبدالحميد سليم، دار المعارف بالقاهرة، ص ص 36 – 43.

17- أنظر : د. عبدالعزيز صالح، نفس المرجع السابق، ص 40. وأيضا : توملين، نفس المرجع السابق، ص 37 – 38.

18- نقلا عن : د. عبدالعزيز صالح، نفس المرجع السابق، ص 40.

19- نفسه.

20- نفسه.

21- نفسه.

22- توملين، نفس المرجع السابق، ص 38.

23- نقلا عن ترجمة د. عبدالعزيز صالح، نفس المرجع، ص 41. وراجع ترجمات أخرى فى كل من :

نصوص الشرق الأدنى القديمة، الجزء الأول، الترجمة العربية، سبق الإشارة

obeikandl.com

إليها، ص ص 37 – 40.

ولسن : نفس المرجع السابق، ص ص 73 – 75.

وبرستيد : نفس المرجع السابق، ص ص 53 – 55.

24- أنظر فى تفاصيل فلسفة الكلمة عند فلاسفة اليونان فى : رشدى حنا عبدالسيد، فلسفة اللوغوس – الكلمة، نشر رابطة خريجى الكلية الاكليركية للأقباط الارثوذكس، القاهرة، 1984م.

وانظر : تفاصيل فلسفة الكلمة عند فلاسفة الإسكندرية فى : د. مصطفى النشار، مدرسة الإسكندرية الفلسفية بين التراث الشرقى والفلسفة اليونانية، نشرة دار المعارف بمصر، 1995م، القسم الثانى، وخاصة الفصول الثالث والرابع والخامس والسادس.

25- توملين : نفس المرجع السابق، ص 41.

وقارن ذلك بما يقوله برستيد مؤيدا ذلك فى نفس المرجع السابق، ص 56.

26- أنظر : تفاصيل هذه الاختلافات فى : برستيد، نفس المرجع السابق، ص ص 57 - 59.

وكذلك : توملين، نفس المرجع السابق، ص 41 – 42.

27- برستيد : نفس المرجع السابق، ص 57.

28- انظر : نفس المرجع السابق، ص 58.

29- هذا النص نقلا عن ترجمة د. عبدالعزيز صالح فى نفس المرجع السابق، ص 43.

وقارن ذلك بترجمة أخرى وردت فى : نصوص الشرق الأدنى القديمة، سبق الإشارة إليه، ص 46.

30- انظر : لويس بقطر : دور الأسطورة فى الفكر المصرى القديم، مجلة فكر،

obeikandl.com

تصدر عن دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة – باريس، نوفمبر 1989م، ص 98.

31- نقلا عن ترجمة د. عبدالعزيز صالح فى نفس المرجع السابق، ص 44.

32- د. عبدالعزيز صالح، نفس المرجع السابق، ص 45.

33- أنظر كتابنا : فلاسفة أيقظوا العالم، الفصل الأول بعنوان "أخناتون – الملك الفيلسوف" دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة 1988م.

34- فيما يتعلق بالتفسيرات البابلية الشبيهة بالتفسيرات المصرية القديمة : أنظر : صمويل كريمر : من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، نشر مكتبة المثنى ببغداد ومكتبة الخانجى بالقاهرة، بدون تاريخ، ص 160 – 162 وما بعدها.

وفيما يتعلق بالفلسفة الهندية وتفسيراتها لأصل الوجود :

انظر :

Radha Krishnan : Indian Philosophy, Vol. I 7th impression 1962, P, 99 ff.

ويمكن الرجوع أيضا لكتاب راداكر شنان وشارلز مور : الفكر الهندى، ترجمة ندرة اليازجى، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت 1967، ص 91 – 93.

35- انظر : د. حسام الألوسى : بواكير الفلسفة قبل طاليس من الميثولوجيا إلى الفلسفة اليونانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، بيروت، 1982، ص 15 – 17.

وانظر كذلك ما كتبه هـ . فرانكفورت وهـ . أ فرانكفورت وجون اسون وثوركيلد جاكوبسن فى كتاب : ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، منشورات دار الحياة ببغداد، 1960، خاصة فى المدخل والفصول الأول والثانى والخامس.

obeikandl.com